

الدولة العثمانية ما لها وما عليها

من المعروف أن لكل دولة مزايا تذكر لها ، وماأخذ تسجل عليها وأن المؤرخ الصادق هو بمثابة القاضى الذى يحكم بالحيثيات وشهادة الشهود ، لذلك فليس من الموضوعية إغفال مزايا الدولة العثمانية والاقتصار على تسجيل عيوبها أو العكس بل يجب على المؤرخ أن يتعرض للجانبين معا دون التحيز لهذا الجانب أو ذاك .

ومن المعروف أن تاريخ آل عثمان بما فيه من حسنات وسينات هو فى الواقع يعد حلقة من تاريخ المسلمين ، كما يعد مرحلة طويلة من مراحل تاريخ العرب الحديث ولا سيما فى الشرق الأدنى(١) . فلم ينظر العرب إلى الدولة العثمانية على أنها دولة أجنبية أو مغتصبة أو مستعمرة لبلادهم إلا فى بداية القرن الحالى ، خصوصا وأن العثمانيين مسلمون ، والدين السائد فى البلاد العربية هو الإسلام ، كما أن الدولة العثمانية حملت لواء الخلافة الإسلامية بعد هزيمتها للمماليك فى موقعتى مرج دابق والريدانية ، ونقل الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين من مصر إلى استنبول(٢) .

وحتى تتضح الصورة حول إيجابيات وسلبيات الحكم العثمانى ينبغى أن نقسم أدوار هذا الحكم إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة القوة ، وهى المرحلة التى شيد فيها العثمانيون دولتهم على أسس سليمة مكنتهم من فرض سيطرتهم على مناطق كبيرة فى آسيا وأوربا وإفريقية . وكانت نظرة العثمانيين خلالها لا تخلو من الشعور بالقوة والتفوق على من عداهم من البشر ، وحيث كانوا يعتمدون فيها على موقف المؤمن من غير المؤمن المدعم بتفوق عسكري كاسح ، لذا فقد بنت الدولة العثمانية قواعدها على أنها دولة عسكرية وكل أفرادها - حتى ولو كانوا من العلماء والشيوخ - يعد محاربا عند الحاجة ، وهذه الفترة يمكن أن نتوقف عند موت السلطان سليمان القانونى ١٥٦٦م ومرحلة الضعف

١- محمد جميل بيهيم: فلسفة التاريخ العثمانى ج٢ ، بيروت ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ص٨ .

٢- للتفاصيل انظر محمد بن أحمد بن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج٣ ، القاهرة ، المطبعة الكبرى ببلاق ، ١٣١٢هـ ص١٢٠ ، ص١٤٧ .

- سى سى نيميزت بانهمزائم انعسكرية المتلاحقة النى برزت منذ هزيمة كارلويتز Karlovitz (١) ١٦٩٩-١٧٠٢م حيث اتضح من خلالها مدى تخلف انقوات العثمانية عن ركب الحضارة الحديثة وعجزها عن رد كيد أعداء المسلمين (٢) . ويمكن القول بأن هذه المرحلة استمرت حتى سقوط الخلافة .

ومن خلال هاتين المرحلتين يتضح أن السلاطين الأوتل من من آل عثمان كانت فى الواقع لهم أباد بيضاء فى رفع شأن الإسلام وما وصل إليه من عظمة وسؤدد وسيادة . كما تحمل الأواخر منهم مسئولية المصير المؤلم الذى آلت إليه الدولة فى عهدهم ، وأدى فى النهاية إلى انهيارها (٣) .

فمن المعروف أن العثمانيين فى فتوحاتهم لأوربا نظروا إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شىء ، فكان ولاؤهم يتجه إلى الدين الإسلامى أولاً (٤) حيث كان الدين والدولة عندهم تيناً واحداً ، والقرآن والسنة هما المصدران الأصيلان فى أى تحرك منهم أو عندهم ، ومن هنا فتحوا للإسلام العديد من الأمصار التى لم يطأ إليها قدم مسلم من قبل (٥) ، مما كان له أثر طيب فى نفوس المسلمين ، ففى القاهرة ودمشق كانت تقام الأفراح والزيينات عقب كل انتصار يحرزه العثمانيون .

وقد اقترنت حركة الفتوحات العثمانية سواء فى الأناضول أم فى أوربا باسم الإسلام ومن هنا نظر الأوروبيون إلى الفتوحات العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، فباسم الإسلام واصل عثمان مؤسس الدولة العثمانية جهوده فى نشر الإسلام فى مناطق الثغور ، وواصل عمليات الجهاد الإسلامى المنظم ضد الكيانات المسيحية المجاورة له .

وباسم الإسلام تمكن مراد الأول ثالث أمراء آل عثمان ٧٦٢-٧٩٢هـ/١٣٦٠-١٣٨٩م من دخول البلقان وتحقيق العديد من الانتصارات التى توجت بفتح مدينة

١- تازلت بعدها الدولة العثمانية عن المجر وترنسلفانيا وبعض المناطق الأخرى لروسيا والنمسا وبولندا.
٢- سيد مصطفى : الإصلاح العثمانى فى القرن الثامن عشر - نقد حالة الفن العسكرى والهندسة والعلوم فى القسطنطينية ١٨٠٣م - تحقيق خالد زيادة ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م ص ١١ .

٣- مجموعة من المؤلفين : عصر السلطان عبد الحميد الثانى وأثره فى الأقطار العربية ١٨٧٦-١٩٠٩م ، دمشق ، المكتبة الهاشمية ، الطبعة الثانية د . ت ٩ ص .

٤- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية متزرى عليها جـ ١ ، القاهرة ، الأجلو المصرية ١٩٨٠م ص ١٠ .

٥- ول ديورانت : قصة الحضارة - ترجمة عبد الحميد يونس ، جزء من المجلد السادس ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ١٠٩ .

'أدرنة' ١٣٦١م^(١) وهزيمة القوى النصرانية ونقل العاصمة من بروسه إلى أدرنة التي صمرت بالمساجد والمدارس وأصبحت نقطة انطلاق لمواصلات الفتوحات الإسلامية في أوروبا^(٢) .

وباسم الإسلام استولى الجيش العثماني على العديد من مدن شرق أوروبا ومن أبرزها صوفيا عاصمة بلغاريا التي تم الاستيلاء عليها في عام ١٥٧٨٧هـ/١٣٨٥م^(٣) .
وباسم الإسلام استمرت الفتوحات العثمانية في البلقان وتساقطت مندها أمام ضربات العثمانيين ، ووصل العثمانيون إلى المورة وأخضعوها لحكمهم وأصبحت معظم بلاد البلقان تحت الحكم العثماني^(٤) .

١١ وباسم الإسلام فتح محمد الثاني القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في عام ١٥٥٣هـ/١٤٥٣م مصداقا للحديث الشريف 'لنتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش'^(٥) ذلك الفتح الذي يعد نقطة تحول فاصلة ليس فقط في تاريخ العثمانيين^(٦) بل وفي تاريخ الصراع بين النصرانية والإسلام فبعد هذا الفتح المبين أمر محمد الفاتح أن يؤذن فيها ، واتجه إلى القبلة وصلى كما حول كاتدرائية آيا صوفيا إلى مسجد وأطلق على القسطنطينية اسما إسلاميا جديدا وهو إسلامبول^(٧) بمعنى عاصمة الإسلام ، وبنى محمد الفاتح مسجدا كبيرا يحمل اسمه ، كما بنى عشرة مساجد أخرى^(٨) ألحق بها مدارس للتعليم ومستشفيات للفقراء ولم تتوقف جهود الفاتح على ذلك بل استطاع القضاء على الإمارات المسيحية في الأنابضول ، وتحويل آسيا الصغرى كلها

-
- ١- أرنولد توينبي: تاريخ البشرية ج٢ - ترجمة نقولا زيادة ، بيروت ، الأهلية للنشر ١٩٨٨م ص ١٨٧ .
 - ٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ، بيروت، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص ٤٨-٥٠ .
 - ٣- عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ص ٣٤ .
 - ٤- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين فارس ومنير الجبلكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٨٤م ص ٤٢٧-٤٢٨ .
 - ٥- ورد في مسند أحمد ، وفي مستدرک الحاكم (حديث صحيح) وانظر أيضا جلال الدين السيوطي: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، المجلد الثاني ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص ٤٠٢ رقم ٧٢٢٧ .
 - ٦- سيد مصطفى : المرجع السابق ص ٩ .
 - ٧- حملت القسطنطينية على مر تاريخها أسماء عديدة منها استامبول واستانبول ودار السعادة ودار الخلافة والأستانة .
 - ٨- منها مسجد 'أبو أيوب الأنصاري' انظر دليل الأستانة ص ٣ .

بى ناطق عثمانية .

وباسم الإسلام شرع هذا السلطان ينفذ مشروعا خطيرا وهو الاستيلاء على روما مقر الباباوية مقسما أن يقدم الطعام بيده إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة الباباوية فى روما مما أزعج العالم المسيحى كله الذى لم يتنفس الصعداء إلا بعد وفاة هذا القائد المسلم فى عام ١٤٨٦هـ/١٤٨١م .

وباسم الإسلام تعددت مظاهر الطابع الإسلامى فى السياسة العامة للدولة العثمانية بدءا بالمراسيم التى كانت تتخذ عند تقليد السلاطين العثمانيين عرش السلطنة حيث كان السلطان الجديد يتسلم عرش السلطنة فى موكب رسمى يتجه إلى مسجد أبى أيوب الأنصارى ، ويتسلم فى جو دينى سيف الجد الأكبر للسلاطين العثمانيين السلطان عثمان الأول (١) .

وباسم الإسلام تردد فى القوانين العامة التى أصدرها السلاطين ، وفى مراسيم التنظيمات العثمانية ما يؤكد حرص الدولة على الظهور بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية والمتبنى لأحكامها (٢) .

وباسم الإسلام استولى السلطان سليمان القانونى على بلجراد ورودس وبودابست ووصلت قواته إلى فينا آخر نقطة وصل إليها العثمانيون فى فتوحاتهم بأوروبا (٣) .

وباسم الإسلام قدم السلطان العثمانى أبو يزيد الثانى ١٤٨٠-١٥١١ المعاونة للسلطان المملوكى قاتصوه الغورى بعد تحطيم أسطوله فى موقعة ديو البحرية فأمده بالأسلحة والأخشاب اللازمة لبناء أسطول جديد ، وتجهيز حملة أخرى لمواجهة البرتغاليين استنقاذا للأماكن الإسلامية المقدسة (٤) ، كما انضم إلى الأسطول المملوكى بعض البحارة والضباط من الأسطول العثمانى للوقوف معا ضد البرتغاليين (٥) .

وباسم الإسلام أوقفت الدولة العثمانية المخطط الصليبي الذى كان يستهدف دخول البرتغاليين البحر الأحمر ، والاستيلاء على جدة والزحف على مكة المكرمة لهدم الكعبة

١- كارل بروكلمان : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، بيروت ، ١٩٤٩ ص ٤٦ .

٢- أحمد فهد الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ، الزرقاء ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ ص ١٤ .

٣- أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩م ص ٢٥٥ .

٤- ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج٤ ص ٢٠١-٢٠٣ .

٥- محمد عبد المنعم الرائد: الغزو العثمانى لمصر وتناجه على الوطن العربى ، القاهرة ، مؤسسة شباب الجامعة ص ١٢٣-١٢٥ .

المشرفة ، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة لنبتش تبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومواصلة الزحف إلى تبوك وصولاً إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، فقامت الدولة العثمانية بوضع خطة جديدة تمثلت فى اتخاذ الموانئ اليمنية - خصوصاً عدن - خط دفاع لمهاجمة المراكز البرتغالية فى الهند ، والدفاع عن سواحل البحر الأحمر ، كما استطاعت دحر الأسطول البرتغالى بالقرب من جدة عام ٩٢٣هـ ، وتحطيم كل المحاولات التى بذلها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية ، وذلك بالتحالف مع الأبحاش ضد القوى الإسلامية فى البحر الأحمر وشرقى إفريقيا^(١) .

وباسم الإسلام قامت الدولة العثمانية بتوحيد أقطار العالم الإسلامى فى إطار سياسى واحد ، وتأليف جبهة إسلامية واحدة بعد أن كانت كيانات متنافرة ، وتكاد تكون متباعدة بين بعضها منذ أن تلاثت الوحدة الإسلامية نتيجة ضعف الخلافة وسقوطها فى عام ٦٥٦هـ على يد المغول^(٢) ، وأصبحت رابطة الدين هى الرابطة الأساسية بين البلاد العربية بعضها مع بعض وبين الدولة العثمانية .

وباسم الإسلام اهتمت الدولة العثمانية بأمر الحجاز - وكان من أبرز مظاهر ذلك هو اهتمامها بالأماكن الإسلامية المقدسة - حيث به قبلة المسلمين ، ومهبط الرسالة ، ومنزل الوحي ، وملتقى قلوب المسلمين فقد أمر السلطان سليم الأول بوضع ثلث ما كان يجبى من مصر للإنفاق على خدمة الحرمين الشريفين ، كما أضاف لهذه المهمة أيضاً خراج اليونان مما أضفى على البلاد الحجاز مركزاً دينياً مرموقاً ، كما أولت الدولة العثمانية قوافل الحج والإشراف عليها ، وتيسير الحج أمام الراغبين فيه اهتماماً خاصاً فاهتمت بالطرق ، وحفرت الآبار على طول طرق الحج ، وأقامت المخافر ، وكانت تشرف على قواعد الحج الرئيسية التى كانت تخرج من كافة أنحاء الدولة فى مواعيد محددة^(٣) .

وباسم الإسلام تدخلت الدولة العثمانية لنجدة أهالى الخليج العربى الذين طلبوا منها المعاونة فى عام ٨٥٧هـ/١٥٥٠م لمواجهة الخطر البرتغالى على بلادهم ، فبعث السلطان سليمان القانونى بحملات منظمة من السويس إلى الخليج العربى لمعاونة إخوانه فى الإسلام ، وسار على نهجه بقية السلاطين من بنى عثمان حتى عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م

١- الشناوى : المرجع السابق ج١ ص ٢١ .

٢- رأيت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ص ٣١ .

٣- مركز للبحوث والدراسات العربية والإسلامية : تسمية الحرمين الشريفين ، القاهرة ، هجر للطباعة والنشر ، مقال للدكتور الصمصامى المرسى تحت عنوان قوافل الحج فى الدولة العثمانية ص ٦٣-٦٤ .

واستطاعت هذه الحملات أن تنزل الحديد من الهزائم بالبرتغاليين (١) .
 وباسم الإسلام وقتت الدولة العثمانية ضد الأطماع البرتغالية وحالت دون تحقيقتها
 فى أرض الإسلام ونك بعد أن عجز المماليك وغيرهم من الوقوف أمام تهديدات
 البرتغاليين خصوصا بعد معركة ديو البحرية ١٥٠٩م فقامت بإغلاق البحر الأحمر فى
 وجه السفن النصرانية ، ولم يسمح لها بتسيير سفنها فى القسم الشمالى من النحر الأحمر ،
 أو بالإبحار فى هذا البحر فيما وراء نهر المغا جنوبى الحديد فى اليمن ، وكانت ذريعتها
 فى ذلك أن أهم الأماكن الإسلامية فى العالم على الإطلاق تقع فى الحجاز ، ويطل ساحل
 هذا الإقليم على البحر الأحمر ، لذلك يجب ألا تبحر منه غير السفن الإسلامية (٢) ، وظلت
 الدولة العثمانية متمسكة بذلك الموقف حتى أواخر القرن الثامن عشر (٣) ومعنى ذلك أن
 الدولة العثمانية تقدمت أعظم خدمة للإسلام حيث وقتت فى وجه الزحف الصليبي البرتغالى
 للبحر الأحمر والأماكن الإسلامية المقدسة ، وكانت الملجأ للعالم الإسلامى وقت الملمات .
 وباسم الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة عرب شمالى افريقية فى الصراع الصليبي
 مع الأسبان والبرتغاليين الذين حاولوا احتلال هذه الأقاليم وتحويلها إلى المسيحية فأعلن
 السلطان سليم الدعوة إلى الجهاد فى شمالى افريقية وأمر بتكوين كتائب المجاهدين (٤) حتى
 استقرت الأمور للإسلام والمسلمين هناك .

وباسم الإسلام ساندت الدولة العثمانية أهالى طرابلس فى مقاومة الخطر الصليبي
 على بلادهم بعد أن أرسلوا إلى السلطان سليمان القانوتى يلتمسون منه التدخل لإنقاذهم
 لتحرير بلادهم من الأسبان الذين أستولوا عليها (٥) وفرسان القديس يوحنا الذين استهدفوا
 تغيير الوجه الإسلامى لبلادهم . وقد أرسل السلطان سليمان قواته للمحافظة على هذه
 البلاد العربية الإسلامية (٦) حتى استقرت الأمور هناك .

-
- ١- نوال الصيرفى : النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى ، الرياض ، دار الملك عبد العزيز ،
 ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٤٤-١٤٥ .
 - ٢- الشناوى : المرجع السابق ج٢ ، ص٦٩٨-٦٩٩ .
 - ٣- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٥ ص١٢٨ .
 - ٤- عبد الكريم رافق : المرجع السابق ص٧٦-٧٧ .
 - ٥- الشناوى : المرجع السابق ج٢ ص٩٢٨-٩٢٩ .
 - ٦- للمجلة التاريخية المصرية : المجلد الخامس والعشرون ١٩٧٨ مقال للدكتور ناصر سعيونى تحت
 عنوان "طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر ص١٤٩-١٥٠ .

رباسم الإسلام قام العثمانيون بملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردهم من رودس^(١) ثم من ليبيا عام ١٥٥١م وكذلك تيامهم بكسر شوكة الأسبان في حوض البحر المتوسط الغربي^(٢) .

وباسم الإسلام وقتت الدولة العثمانية أمام زحف الصفويين الشيعة الذين تمكنوا من الاستيلاء على العراق ، ونشر المذهب الشيعي في الأناضول ، وراحوا يحملون الناس قسرا على الدخول في مذهبهم ، ولا يترددون في إقناء مدن بأسرها ، والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحدا حين يرفضون الاستجابة لدعوتهم ، ويتمسكون بالمذهب السني^(٣) .

وكان من نتيجة ذلك قيام السلطان العثماني سليم الأول بغزو فارس والالتقاء مع الصفويين بوادي جالديران^(٤) في أواخر عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م في معركة رهيبة استطاع فيها العثمانيون هزيمة الصفويين في جالديران ودخول عاصمتهم تبريز^(٥) في ١٤ من رجب ٩٢٠هـ وضم ولايتي ديار بكر وكرديستان إلى بلاده والاستيلاء على خزائن الشاه ، ونقضاء على المد الشيعي في الأناضول^(٦) والعمل على انحصاره في العراق ، وبذلك استطاع العثمانيون حماية المذهب السني من خطر الزحف الشيعي الذي كان الشاه اسماعيل الصفوي يأمل في نشره في كافة أنحاء المشرق العربي والقضاء على المذهب السني . ولم يكتف العثمانيون بذلك بل خاضوا العديد من المعارك مع الفرس دفاعا عن العراق الذي كان الفرس يتطلعون إليه دائما ، ويرغبون في صبغته بالصبغة الشيعية ولو بحد السيف^(٧) . وبالرغم من أن ذلك كلفهم العديد من الرجال والعتاد^(٨) فقد تمكنوا من حصر المذهب الشيعي في فارس ، ولم يسمحوا بتسريه إلى البلدان العربية الواقعة تحت

١- ول ديورانت : المرجع السابق ج٤ المجلد السادس ص١٢٧ .

٢- رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٣٢-٣٣ .

٣- أحمد الساداتى : المرجع السابق ص١٥٢ .

٤- يقع بين بحيرة أرمية وتبريز بأذربيجان .

٥- الشناوى : المرجع السابق ج٢ ص ٩٦٤ .

٦- مما يذكر أن السلطان سليم قتل نحو الأربعين ألفا من الشيعة . انظر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية - تحقيق إحسان حقى ، بيروت ، دار النفائس ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٨٩ .

٧- عبد العزيز نوار : تاريخ العراق للحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية محنت باشا ، القاهرة ، دار الكاتب العربي ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص ٥ .

٨- الساداتى : المرجع السابق ص ٢٥٥ .

سيطرتهم^(١) ، وبذلك ظهر سلاطين الدولة العثمانية أمام العالم الإسلامى بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية ، والحماة للتقليديين للمذهب السنى .

وباسم الإسلام عد الأتراك أنفسهم حراسا لدولة الإسلام وقد دفعهم ذلك إلى الاحتفاظ بحاميات فى الأقاليم العربية التابعة لهم ، وإذا كان الجندى العثمانى لا يتميز بسرعة اندماجه مع الأهالى فإن طول مدة إقامة الحاميات العثمانية فى عدد من الأقاليم البعيدة عن عاصمة الدولة ، وخاصة فى شمالي افريقية كان يسمح بنوع من الاندماج والمصاهرة^(٢) .

وباسم الإسلام أصدرت الدولة العثمانية بعد فتحها لمصر فرمانا بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء على أساس أنها تضم الوادى المقدس طوى الذى كلم فيه الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام فقال تعالى: "وكلم الله موسى تكليما"^(٣) ، وقال : أيضا "ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه"^(٤) .

وسار سلاطين الدولة العثمانية على هذا المنوال حتى جاء الانجليز وسيطروا على مصر فى عام ١٨٨٢م فتغيرت الأوضاع^(٥) هناك .

وباسم الإسلام استولى العثمانيون على قسم كبير من الحبشة (١٥٢٩-١٥٤٢) فى المعركة التى دارت رحاها بينهم وبين القوات البرتغالية ، التى قاتلت فيها القوات العثمانية إلى جانب المسلمين ، بينما قاتل البرتغاليون إلى جانب الأقباش وقد خرجت الحبشة من القتال وقد أصابها الدمار ونقص سكانها^(٦) .

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثانى بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية خصوصا وأن مبعث ولاء المسلمين للدولة العثمانية كان دينيا ، حيث كانوا مكلفين شرعا بطاعة السلطان باعتباره الخليفة والأب الروحى للمسلمين ، ونائب رسول الله صلى الله

١- الشناوى : المرجع السابق ج٢ ص ٩٦٥ .

٢- جلال يحيى : المغرب الكبير ج٣ ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٨١م ص ٧٠٠ .

٣- النساء : الآية ١٦٤ .

٤- الأعراف : الآية ١٤٣ .

٥- الشناوى : المرجع السابق ج٢ ص ٩٦٦ .

٦- توينبى : المرجع السابق ج٢ ص ١٨٩ .

عليه وسلم ، وعليهم أن يسمعوا له ويطيعوا(١) . ومن هنا رأى السلطان عبد الحميد الثانى استخدام هذا الولاء فى حماية البلدان الإسلامية من الأخطار التى تحيط بها ، وانقاذها من حالة التفسخ والركود الذى تغلغل بين أفرادها فدعا إلى جامعة إسلامية تجمع بين المسلمين مهما اختلفت لغاتهم وبلادهم .

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثانى بإنشاء سكة حديد الحجاز الذى يصل دمشق بالمدينة المنورة . وبذلك شهدت الأراضى الإسلامية المقدسة لأول مرة فى التاريخ "خطا حديديا" يخدم حجيج بيت الله الحرام ، ويوفر لهم الأمن والسرعة والراحة بعد أن كانوا يستخدمون قوافل الجمال ويتعرضون للعديد من المخاطر ، فكان ذلك أعظم هدية قدمها السلطان عبد الحميد للمسلمين(٢) .

وباسم الإسلام وقف السلطان عبد الحميد الثانى ضد استيطان اليهود فى فلسطين ، فعندما عرض عليه هرتزل حل أزمتة المالية فى نظير السماح لليهود بالاستيطان فى فلسطين(٣) رفض طلبه وحسم الموقف معه بقوله "إنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهى ليست ملك يمينى بل ملك شعبى ، لقد ناضل شعبي فى سبيل هذه الأرض، ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم(٤)" .

ولإحساس السلطان عبد الحميد بعدم توقف الضغوط اليهودية عليه بدأ يهتم بالأوضاع الإدارية فى بيت المقدس فجعلها متصرفية تابعة للباب العالى مباشرة بعد أن كانت تابعة لباشا دمشق ، كما عين محمد شريف رعوف باشا المشهور بشدته متصرفا على القدس(٥) . يضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية حافظت على تقاليد الخلافة السابقة فى اعتمادها على القرآن كمصدر للتشريع وإن كانت تحيد عن بنوده فى بعض الأحيان(٦) . كل ذلك جعل العالم الإسلامى ينظر إلى أعمال العثمانيين على أنها مفخرة للإسلام والمسلمين .

هذا عن مشارب الدولة العثمانية فماذا عن مثالبها .

١- محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ج١ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٢م ص ٢٠ .

٢- الشناوى : المرجع السابق ج٣ ص ١٣٢٥-١٣٢٦ .

٣- الشناوى : المرجع السابق ج٢ ص ٩٨٨ .

٤- عبد الحميد الثانى : مذكراتى السياسية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ ص ٢٤ وما بعدها .

٥- سيد مصطفى : المصدر السابق ص ١٠ .

٦- الشناوى : المرجع السابق ج٢ ص ٩٧٥-٩٧٩ .

توقع أن هناك العديد من المآخذ التي أخذت على العثمانيين مثل عدم نجدتهم لأهل الأندلس خلال سقوط غرناطة . ونظام الحكم العثماني سواء في داخل مقل سلطنة أو في الولايات العربية ، وضعف اللغة العربية وضياع هبة العلماء ، والمأسى التي ارتكبت في أواخر الحكم العثماني ضد العرب خصوصا بعد ظهور النعرات القومية كالثورانية أو غيرها وفيما يلي نعرض لذلك :

١ - عدم نجدة أهل الأندلس خلال محنتهم :

تحمل الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية وقت سقوط الأندلس مسئولية عدم تقديم النجدة للغرناطين الذين ناشدوها مساعدتهم عسكريا في صراعهم من أجل البقاء ، والمحافظة على الدين والملة ، فقد أرسل أهل غرناطة في منتصف عام ١٤٧٧م إلى السلطان محمد الفاتح يناشدونه التدخل لإنقاذهم ولكنه كان مشغولا عنهم (١) ، كما استجد الغرناطيون بالسلطان بيابيد الثاني ١٤٨٠-١٥١١م ولكنه لم يقدم لهم النجدة (٢) .

٢ - التنازع على وراثة العرش وتنافر الأسرة المالكة العثمانية :

إن نظام التوارث على العرش يكون له أثر كبير في استقرار أمور الدولة إذا بنى على أسس ثابتة ومعروفة ، أما في الدولة العثمانية فإن هذا النظام كان في حاجة إلى انتظام في الفترة الأولى من عصر السلاطين كان نظام الوراثة يقوم على أساس انتقال العرش من الابن البكر إلى الأكبر فالأصغر من الأبناء ، وهكذا فإن أخوة السلطان وأبناءهم الذين يرحون من السلطة بمقتضى هذا النظام كانوا كثيرا ما يغتزمون الفرص للخروج على السلطان أملا في استخلاص العرش لأنفسهم ، يقابل ذلك أن السلطان القائم كان يفقد الثقة بأخوته ولا يتورع عن الفتك بهم ، ثم عدل نظام الإرث في عهد السلطان الرابع عشر أحمد الأول ١٦٠٣-١٦١٧م فأصبح العرش ينتقل من الأكبر فالأصغر من إخوة السلطان بدلا من انتقاله إلى الأكبر فالأصغر من بنيه (٣) ، ثم تغير هذا النظام بأن أصبح للسلطان الحاكم الحق في أن يختار من يخلفه من بين أبنائه أو من إخوته دون أن يتنيد باختيار الابن أو الأخ الأكبر من أدى إلى ظهور روح التنافر ، وقيام المؤامرات داخل القصور السلطانية لإبعاد أمير عن العرش أو تقريب أمير آخر منه ، وكانت هذه المؤامرات تأتي غالبا من زوجات السلطان اللاتي أنجبن أولادا منه رغبة في أن يكون

١- للشناوى : المرجع السابق ج٢ ص ٨٩٨ .

٢- هناك من يذكر أن السلطان بيابيد الثاني أرسل أسطولا لنجدة أهل الأندلس ولكن ذلك لم يثبت تاريخيا .
انظر ستانلى لين بول : الدول الإسلامية - ترجمة محمد صبحى فرزات - القسم الأول ، دمشق ، مكتب الدراسات الإسلامية ص ٦٥ .

٣- بيهيم : المرجع السابق ج٢ ص ١٧ .

ابنهن وليا للعهد ، ونظرا لهذا التصارع للوصول إلى السلطة كان الابن الذي يصل إلى منصب السلطنة كثيرا ما يقوم بقتل جميع منافسيه ، أو يفرض عليهم أن يظلموا سجناء في قصورهم لا يخالطون أحدا ومن غريب الأمر أن يصدر السلطان محمد الفاتح قانونا خول بمقتضاه السلطان الذي يتولى العرش بأن يقوم بقتل إخوته تأمينا لسلامة الدولة وأمنها القومي^(١) ، وقد عبر محمد الفاتح عن ذلك صراحة في سجل القوانين بقوله "إن شالبيهة المشرعين أعلنوا أن اللامعين من أبنائى الذين يتولون العرش يكون لهم الحق فى إعدام إخوتهم تأمينا للسلام فى الدولة وعليهم أن يعملوا طبقا لهذا" وبهذا حكم محمد الفاتح فى هدوء بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا الكبار منهم ، وثمة سيئة أخرى من سيئات هذا النظام وهى أن ممتلكات المحكوم عليهم بالإعدام كانت تؤول إلى السلطان مما شجغ العديد من السلاطين على اقتراف هذه الجريمة^(٢) .

أى صلات رحم هذه التى يقوم فيها الأخ بقتل إخوته خشية على سلطته ؟! ثم جاء بعد ذلك دور الإنكشارية فى التمثيل بالسلاطين أنفسهم وعزلهم وتنصيب من يجدون فيه عوناً لهم وذلك منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، وأبرز الأمثلة على ذلك أنهم قاموا بخلع السلطان مصطفى الأول ، وقتلوا عثمان الثانى وإبراهيم الأول^(٣) .

٣ - زواج السلاطين العثمانيين من الأجنيبات :

لقد سمح الإسلام للرجل المسلم بالترج من النصرانية أو اليهودية طبقا لقوله تعالى: "اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا عاتبتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين"^(٤) .

ولكن قد يقتضى الأمر أحيانا عدم الزواج من الكتابيات خشية تسرب أسرار الدولة إلى أعدائها من اليهود والنصارى ، وقد يقتضى الأمر أيضا زواج السلاطين من الكتابيات لمصالح سياسية فمثلا كانوا يتزوجون من بنات الملوك والأمراء النصارى أو اليهود ليكسبوا ودهم .

١- الشناوى : المرجع السابق ج١ ص ٣٤٦-٣٤٩ .

٢- ول ديورانت : المرجع السابق ج٤ المجلد السادس ص ١١٥ .

٣- بيهم : المرجع السابق ج٢ ص ١٨ .

٤- سورة المائدة : الآية ٥ .

وعلى الرغم من أن المؤسسين الفاتحين من آل عثمان قد اختاروا الزواج من الأجنبيات لغايات سياسية ، ولتأمين العصبيات فإنه سرعان ما تطورت الأمور وأصبحت قصور السلاطين أهلة بالجوارى والسرارى الأجنبيات اللاتى تظاهرن بالإسلام ولكنهن فى الواقع لن ينسبن أوطانهن الأولى ولا قوميتهن السابقة فاستغلن وضعهن فى انقصر السلطاني واهتمن بخدمة أوطانهن الأصلية على حساب الدولة العثمانية(١) . وقد أوتين من اللساتس ألوانا أودت بعز الدولة ، وسودت صفحات عواهلها مما كان له أكبر الأثر فى تفسخ الأسرة العثمانية المالكة وإضعاف شأنها(٢) ، وأبرز الأمثلة على ذلك أن السلطان سليمان القانونى ضم إلى حريمه نحو ثلاثمائة جارية كلهن مشتريات من الأسواق أو أسيرات فى الحرب ، ومعظمهن من أصل مسيحي(٣) ، يضاف إلى ذلك انه كانت له محظية شركسية تعرف باسم 'وردة الربيع' أنجبت له طفلا أسماه مصطفى ، وعهد إليه بعدة مناصب ، ودرية ليكون وريثا للعرش(٤) ، ثم فجأة شغف بروكسلانه الروسية التى انتزعتها من محظيته الشركسية فاتخذها زوجة له ، وقتل ابنه وولى عهده مصطفى إرضاء لها بعد أن حبكت له مؤامرة - شاركها فيها رستم باشا الصدر الأعظم(٥) - أوغرت فيها صر أبية عليه ، وعين ابنه سليم من روكلانه وليا للعهد بدلا من أخيه الأكبر(٦) .

يضاف إلى ذلك أن هذه المرأة استطاعت حجب زوجها السلطان عن قيادة الحملات الحربية بعد أن كان وجوده فى ساحة القتال يثير حماس الجنود ويلهب مشاعرهم(٧) . وسار من جاء بعده من السلاطين على منواله مما أدى إلى فتور حماس الجند ، كما بدأ الفساد يدب فى صفوف الإنكشارية الذين كانوا قد اعتادوا على أن لا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود حملتهم . يضاف إلى ذلك أن السلاطين أصبحوا فى معزل عن معرفة أحوال قواتهم ، ومدى ما وصلت إليه من قوة خصوصا وأن الحاشية السلطانية كانت تحجب عن السلاطين الأمور التى لا تريد أن تصل إلى مسامعها(٨) .

١- الشناوى : المرجع السابق ج١ ص ٤٠ .

٢- بيهم : المرجع السابق ج٢ ص ١٣ .

٣- ول ديورانت : المرجع السابق ج٤ المجلد السادس ص ١١٧ .

٤- نفسه ص ١٢٦ .

٥- ألقت روكلانه فى روع زوجها سليمان أن ابنه مصطفى يحاول أن يكسب شعبية تطلعا منه إلى انتزاع العرش ، كما اتهم رستم باشا مصطفى بأنه يتودد سرا إلى الإنكشارية ليقتلوا بجانبه ضد أبيه مما جعل الشك يساور السلطان فأمر بقتل ابنه . انظر ول ديورانت : المرجع السابق ص ١٢٧ .

٦- الشناوى : المرجع السابق ج١ ص ٦١٧ .

٧- نفسه : ص ٦١٤ .

٨- بيهم : المرجع السابق ج٢ ص ٢٢ .

٤ - الاعتماد على الانكشارية :

اعتمدت الدولة العثمانية فى عملية التجنيد على جمع أبناء العائلات الأرثوذكسية خصوصا من البلقان فكانت ترسل وكلاءها إلى هذه المناطق حيث يطلبون من قسيس القرية كشفا بأسماء الأطفال الذكور الذى قام بتعميدهم ثم يقومون بجمعهم ، ويتحركون بهم إلى الآستانة حتى تتقطع صلاتهم بذويهم نهائيا^(١) . وقد عرفت هذه العملية باسم "الدفشirme"^(٢) Devshirme أو ديوشيرمه وهى كلمة تركية تعنى ضريبة الغلمان . وقد أعدت الدولة هؤلاء الغلمان ليكونوا فرق مشاه فى الجيش العثماني وأطلق عليهم الانكشارية^(٣) . وقد قامت هذه القوات بدور رئيسى فى الفتوحات العثمانية وصار لا يعول إلا عليها فى الحرب ، ولما أخذت الدولة العثمانية تمر فى مراحل الضعف ترك الحبل على الغارب لزعماء الانكشارية حتى تضخم نفوذهم وتزايد لدرجة أنهم خرجوا عن حدودهم وتعدوا واستبدوا وأصبحوا عبئا ثقيلا على السلاطين أنفسهم خصوصا بعد أن صار بمقدورهم تمصيب السلاطين أو خلعهم^(٤) . يضاف إلى ذلك قيامهم فى العديد من المرات بالتمرد ، وسلب أموال الأهالى ، وإشعال النيران فى ممتلكاتهم واقتحام المنازل والاعتداء على من فيها ، واعتراض مواكب السلاطين^(٥) والتدخل فى سياسة الدولة العليا، هذا إلى جانب انتهاكهم للشريعة وتمزيق القرآن أثناء ثوراتهم ، وإهمال الصلاة ، وشرب الخمر^(٦) ، واستمرت الأحوال على ذلك حتى تمكن السلطان محمود الثانى من القضاء عليهم بقتل أغلبهم فى ٩ ذى القعدة من عام ١٢٤١ الموافق ١٦ من يونيو ١٨٢٦م^(٧) دون أن يجد البديل الذى يستطيع حماية أراضى الدولة العثمانية والدفاع عنها ضد أعدائها .

١- لتفاصيل ذلك انظر :

H. Gibb and H, Bowen : Islamic Society and the west, vol 1 pp. 56-60 .

٢- عمر عبد العزيز: تاريخ المشرق العربى ١٥١٦-١٩٢٢ ، بيروت ، دار النهضة العربية ص٤٢ .

٣- معناها الجنود الجند ، وقصة هذه الكلمة أنه لما صار لدى السلطان أورخان عدد ليس بقليل من هؤلاء الجند ، سار بهم إلى شيخ طريقة البكطاشية ليدعو لهم بخير ، فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال فليكن اسمهم (بنى تشارى) أى الجيش الجديد ثم حرف هذا الاسم فى العربية فصار انكشارى . انظر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص٤٢ . انظر

أيضا توينبى : المرجع السابق ج٢ ص١٨٨ .

٤- سيد مصطفى : المصدر السابق ص١٠ .

٥- لتفاصيل ذلك انظر الشناوى : المرجع السابق ج١ ص٤٩٤-٤٩٩ .

٦- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٢٦٨ .

٧- محمد فريد : المرجع السابق ص٤٢ .

٥ - عدم مسايرة الدولة العثمانية للتطور فى أنظمة الحكم وأحداث عصر النهضة:

لم تعمل الدولة العثمانية على تطوير أنظمتها فى الحكم والادارة فظلت أنظمتها جامدة فى حين أخذت أوروبا فى تطوير أجهزتها الحكومية منذ عصر النهضة مما أوجد فجوة حضارية بينهما .

ونتيجة لذلك أخذت الشعوب المسيحية التابعة للعثمانيين تتطلع إلى الانفصال ، وبدأت الدول الأوروبية تتدخل من أجل اقتسام أملاك الدولة العثمانية^(١) فدعت إلى عقد مؤتمرات دولية لبحث ما أطلق عليه المسألة الشرقية .

يضاف إلى ذلك أن العثمانيين لم يسايروا تطورات عصر النهضة فى أوروبا مما جعل الحجة الحضارية شديدة الاتساع بين الشرق والغرب ، وأظهر عجز العثمانيين عن متابعة هذه التطورات .

٦ - الاعتماد على غير المسلمين فى تسيير أمور الدولة العامة :

لقد وجد اليهود والنصارى عند السلاطين العثمانيين صدرا رحبا إذ اعتمدوا عليهم فى جميع أجهزة الدولة خصوصا المناصب الكبرى منها فشكل هؤلاء غالبية الهيئة الادارية فى الحكومة العثمانية^(٢) ، كما أسند إليهم قيادة الجيوش ، ووصل بعضهم إلى منصب الوزارة والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أن السلطان بايزيد الأول ١٣٨٨-٤٠٣م قد ولى الأمير سيسمان ابن ملك البلغار على ولاية صمصون ، يضاف إلى ذلك أن الباب العالى اعتمد فى اختيار ورائه على الأوربيين حديثى العهد بالإسلام لا سيما الألبان^(٣) . وإلى جانب ذلك فإن انعمانيين سمحوا لليهود الدونمة بتولى الوظائف الهامة فى الدولة ، مما كان له أكبر الأثر فى ضرب الإسلام وتهديم كيانه من الداخل خصوصا بعد أن لبس هؤلاء لباس الإسلام وعاشوا بين المسلمين يظهرون لهم المودة فى حين كانوا فى الباطن يدبرون لهم المؤامرات ، ويكونون التنظيمات المعادية للإسلام بهدف اقتلاع الحكم الإسلامى من جذوره وقد ساعدهم على ذلك صلتهم الوثيقة بحكومة الاتحاد والترقى التى استولت على الحكم بعد خلع السلطان عبد الحميد

٧ - المأسى التى ارتكبتها العثمانيون ضد العرب :

ارتكب العثمانيون العديد من المأسى ضد الشعوب العربية بطريقة تبعد حكمهم إلى حد كبير عن روح الإسلام وسماحته ، فقد كانوا فى كثير من الأحيان يشعرون بميزة

١- الشناوى : المرجع السابق ج٤ ص ١٨١٠-١٨١١ .

٢- ول ديورانت : المرجع السابق ج٤ المجلد السادس ص ١١٢ .

٣- بيهم : المرجع السابق ج٢ ص ٣٩ .

مستواهم المستمدة من سلطة عنصرهم على حين كان العرب يشعرون بأنهم أصحاب البلاد الأصليين والأدلة على ذلك متعددة وواضحة ذكرها بعض شهود العيان ومن هؤلاء المؤرخ ابن اياس الذى قال عن جنود السلطان سليم بعد دخولها إلى بلاد الشام إن عسكر ابن عثمان خرب غيطان الشام ، ونهب الفواكة من فوق الأشجار ، ورعت خيولهم فى الغيطان ، وأكلوا أوراق الأشجار وطرردوا الناس عن بيوتهم وسكنوا بها وأخربوا غالب بيوت الشام وحصل منهم لأهل الشام غاية الضرر (١) . وقال بعد دخول القوات العثمانية مصر إن "ابن عثمان هتك حريم مصر وما خرج منها حتى غنم أموالها ، وقتل أبطالها ويتم أطفالها ، وأسر رجالها وبدد أحوالها وأظهر أهوالها (٢) . يضاف إلى ذلك أن ابن عثمان كان ينحجب عن عسكره أيافا لا يظهر فيها وفى هذه المدة يقتل العسكر خلقا فى المدينة ، ويتجاهرون بالمعاصى والفسوق ، وأنهم لا يصومون شهر رمضان ، ويشربون فيه الخمر والبوزة ، ويستعملون فيه الحشيش والشحيب ويفعلون الفاحشة فى الصبيان المرد فى شهر رمضان ، وأن ابن عثمان لا يصلى الجمعة إلا قليلا . وقد أشيعت عن ابن عثمان هذه الأخبار الشنيعة (٣) .

وذكر المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى مفاصد الجند العثمانى بقوله "يأكلون ويشربون جهارا فى نهار رمضان ، ويشربون الحشيش والمسكرات ، ويزنون ويلوطون ويشربون الجوزة ويلعبون القمار جهارا فى نهار رمضان ولياليه (٤) " . وأوضح محمد الادريسى - أمير منطقة المخلاف السليمانى - مفاصد الأتراك العثمانيين بقوله إنهم كانوا يُستبيحون الحرم ، وينتهكون الأعراض ، ويتجاهرون بالمعاصى والخروج عن الحدود التى حددها الله ورسوله غير مباليين ولا متأدبين فلا الصلاة يؤدون ولا الشهر يصومون ، ولا هم فى حكمهم يعدلون (٥) . كل ذلك جعل الأهالى ينفرون منهم، كما ذكر الادريسى أن العثمانيين كانوا يتقاضون الرشوة ، ويحتكرون العرب ولغتهم هذا بالإضافة إلى إهمال جميع المصالح العامة وإهانة رجال الدين (٦) .

١- ابن اياس : المصدر السابق ج٣ ص ١٤٤ .

٢- نفسه ج٣ ص ١٣٣ .

٣- نفسه ج٣ ص ٨٢-٨٣ .

٤- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج٤ ، القاهرة ، المطبعة لشرافية ١٣٢٢هـ .

ص ٢٢٨ ، ٣١٠ .

٥- محمد الادريسى : هذا بيان للناس وموعظة للمتقين ، رسالة إلى صديق له فى مصر بتاريخ ٦ ربيع الثانى ١٣٣٠هـ .

٦- نفسه .

يضاف إلى ذلك أن الإدارة العثمانية لم تعمل على إيجاد أي باعث حقيقي لإسعاد رعاياها بل انقسم أبناء الدولة إلى حكام ورعايا ، كما انتشرت الرشوة في كافة الأوساط الحكومية لدرجة أنه كان هناك سمسرة للوزراء خصوصا في أيام عبد الحميد الثاني ينتشرون في الولايات ، ويعقدون الصفقات في شئون الدولة^(١) مما كان له تأثيرات سلبية خصوصا على المجتمعات العربية أدت في نهاية الأمر إلى عدم شعور الأهالي بالولاء للدولة العثمانية^(٢) .

ومن مساوئ أنظمة الدولة العثمانية لحكم البلاد العربية ما يلي :

١ - أن الوالي الذي كان بمثابة نائب السلطان في البلد الذي يحكمه وكان تعيينه غالبا لمدة عام واحد مما جعل الولاة لا يهتمون بأمور ولاياتهم بل كان جل همهم هو جمع الأموال لأنفسهم والانصراف عن المشروعات العمرانية والإنتاجية التي تتطلب متابعة متوالية لإتمامها^(٣) .

٢ - انتشار الرشوة بين أفراد الديوان الذي كان بمثابة الهيئة الحكومية العليا نتيجة تبني موظفي الإدارة العثمانية بعض الأفكار الخاطئة عن اختصاصهم فصار التقليد المتبع هو الحصول على الترقية بالرشوة والمحسوبية ، كما طرحت المناصب الإدارية والمدنية والامتيازات والرتب في المزاد العلني ، وساد الاستهتار بين موظفي الدولة والجنود الذين فتدوا بالتدريج المثل الأخلاقية التي كانت قد بدت واضحة عليهم في المراحل الأولى من الحكم العثماني ، فالباشا الصالح في نظرهم هو الذي كان يرسل المبالغ المعينة التي خطبها خزانه السلطان ، وكانت هذه هي أول خطوة نحو الرشوة فقد عمل الولاة على الاستفادة من وجودهم في مناصبهم ، وتعويض ما دفعوه من رشاوى هذا بالإضافة إلى تكريهم للثروات الضخمة^(٤) .

٣ - تركيز السلطة في أيدي بعض الزعماء المحليين الذين حاولوا الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية مما أدى إلى سلسلة من الاضطرابات والانقسامات داخل الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية^(٥) .

٤ - لجوء الدولة العثمانية إلى طريقة الالتزام حتى تتمكن من تأمين الأموال اللازمة لها خصوصا وأن الملتزمين كانوا يجمعون من الأهالي ما يفوق الأموال التي

١- بينهم : المرجع السابق ج٢ ص ٤٤ .

٢- رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٣٦-٣٧ .

٣- جلال يحيى : العالم العربي الحديث ، الاسكندرية ، دار المعارف ١٩٧٤م ص ٥١ .

٤- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ١٢٧ .

٥- نفسه : ص ١٢٦ .

محملة ما بين ذهب وفضة هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح والصيبي والنحاس والمكنت والخيول والبغال والجمال وغير ذلك حتى نقل منها الرخام الفاخر (١) *
يضاف إلى ذلك أنه نقل العمال المهرة من مصر إلى الآستانة (٢) حتى أغلقت الكثير من الورش ، وفقدت مصر أكثر من خمسين صنعة (٣) .

٦ - تدهور الدراسات الدينية والفكرية وانحطاط هيبة العلماء :

خلال الحكم العثماني للعالم العربي ضاق حيز الدراسات الدينية نسبيًا ، ولذلك لا نجد في العصر العثماني حماس العلماء من أجل إضافة أشياء جديدة تضاف إلى رصيد ما جاء به فحول انقهاء فيما يتعلق بالشريعة والخلافة والإمامة ونظم الحكم بل انحطت هيبة العلماء ، وتدهورت سمعتهم ، وازداد نمو الفساد في سلوكهم لدرجة أن الوظائف العليا بينهم كانت تباع للأشخاص غير المؤهلين لتولي هذه المناصب (٤) . يضاف إلى ذلك أن إهمال العثمانيين للغة العربية ، وسيطرة اللغة التركية عليها خاصة في دواوين الحكومة والمعاملات الرسمية قد أدى إلى شيوع العجمة في التراكيب ، والتردى في الكثير من الأخطاء النحوية واللغوية (٥) ، وانتهى الأمر باستغلال الإرساليات التصيرية للفرصة ، وتشجيعهم لنصارى الشام على حمل لواء النهضة الفكرية في العالم العربي .

وإلى جانب ذلك فقد أدى تدهور الدراسات الدينية إلى انتشار البدع والخرافات بين المسلمين حتى أصبح الناس لا يعرفون التفرقة بين الصحيح وغير الصحيح في دينهم ن ونتيجة لذلك راح العلماء العرب الغيورون على دينهم يحاولون إصلاح أمور بلادهم وأبرز مثال على هؤلاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي تعدد دعوته أولى الحركات الإصلاحية في الوطن العربي ، والتي بذلت الدولة العثمانية جل جهودها للقضاء عليها .

٧ - تدهور الحركة العلمية في العصر العثماني :

سيطرت روح الجمود المطلق على الحركة العلمية في البلدان العربية إبان الحكم العثماني فلا نكاد نجد في العصر العثماني مؤلفات تتمتع بشيء من الأصالة العلمية وبالتالي لا نجد علماء يماثلون علماء العصر المملوكي مثلا فقد انكب العلماء في العصر العثماني على تأليف الملخصات ووضع الحواشي على الحواشي وتخيل غرائب المسائل

١- ابن اياس : المصدر السابق ج٣ ص ١٢٢ .

٢- نفسه ص ١٢٢ .

٣- الجدير بالذكر ان السلطان سليمان القانوني قد أمر بإعادة هؤلاء العمال إلى مصر .

٤- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢١١ ، ٢٦٧ .

٥- عبد المنعم الجميبي : عبد الله النديم ودوره في الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعي ١٩٨٠ ص ٣٩٦ .

انحوية والفتحية ، وصاروا يدعون إلى الاستسلام للأمر الواقع .
ولم يقف الحال على ذلك بل أغلقت معظم المدارس وتدنّت الروح العلمية فيما تبقى
منها تدنيا ظاهرا بسبب تعصب العثمانيين من جهة ، ونضوب الموارد المائية من جهة
أخرى ، وعلى هذا فإنه يمكن القول: إن مرحلة الانحطاط العلمي قد سيطرت على البلدان
العربية ، منذ استيلاء العثمانيين عليها(١) ولكن هل هذا يعنى أن نقلى اللوم كل اللوم على
العثمانيين فحسب . فالواقع أن هناك بعض المناطق العربية مثل المغرب ونجد وعمان لم
تقع تحت طائلة الحكم العثماني ، ومع ذلك فإنه لم ينتابها التقدم مثلها مثل البلدان العربية
الأخرى التي دخلت تحت الحكم العثماني مما يوضح أن الأوضاع التي خيمت على البلدان
الشرقية في ذلك الوقت ، وروح الركون إلى الكسل والخمول الذي انتاب رجالها كان لها
الدور الأكبر في ذلك .

٨ - إهمال شئون أمن الحجاج والحرمين الشريفين :

في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني لم تهتم الدولة العثمانية بشئون حجيج بيت الله
الحرام لدرجة أن الأعراب كانوا ينقضون على الحجاج سلبا ونهبا وقتلا ، ويسومونهم
سوء العذاب دون أى رادع يردعهم خصوصا وأن العثمانيين لم يرسلوا إلى أرض الحجاز
من الجنود ما يحفظ الحج والحجاج ويجعلهم فى مأمن على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم(٢).
ومما زاد الطين بله انه عندما قامت ثورة الشريف حسين بن على ضد الأتراك فى
شعبان ١٣٣٤هـ/ يونيو ١٩١٦م ودارت رحى المعارك من أجل إخراج الأتراك من مكة
أطلق الأتراك نيران مدافعهم من قلعة أجياد المقامة على الجبل صوب الكعبة حتى التهمت
النيران أستار البيت العتيق ، وهرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبها ، وفتح باب البيت
والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهب(٣) .
وهكذا انتهك الأتراك حرمة أقدس البقاع فى الأرض ، ومهما برر البعض الأعداء
لهم فمن المعروف أن مكة المكرمة كلها حرم لا يجوز القتال فيه .

١- أكرم العلي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠٠-١٥٢٠م ، دمشق ،
الشركة المتحدة للتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ص ١٩٣-١٩٥ .

٢- إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية ، المجلد الثانى
ص ٧٥-٧٨ .

٣- أحمد عبد الغفور عطار : الكعبة وانكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم ، مكة المكرمة ،
١٣٦٧هـ/ ١٩٧٧م ص ١١٦ .

٩ - الامتيازات الأجنبية التي منحتها الدولة العثمانية للأوروبيين في البلدان العربية :

من المعروف انه نتيجة لدخول العثمانيين إلى البلاد العربية حرمت هذه البلاد من ممارسة سيادتها خارج نطاق حدودها وأصبحت الدولة العثمانية هي صاحبة الأمر والنهي في تسيير أمورها ، وقد أعطت هذه الدولة بعضا من الامتيازات لعدد من الدول الأوروبية تم استغلالها في فترة ضعف الدولة لصالح رعايا هذه الدول الذين أخذوا يفسرون هذه الامتيازات تفسيراً تعسفياً ، كما أخذت دولهم تتدخل في شئون البلدان الإسلامية مستغلة في ذلك هذه الامتيازات وانتزعت لنفسها العديد من الأطماع (١) .

١٠ - مسئولية الدولة العثمانية عن الاحتلال البريطاني لمصر :

كان لتخبط السياسة العثمانية تجاه المسألة المصرية أكبر الأثر في تعقدتها وضياع استقلالها ومن أمثلة ذلك التخبط عدم موافقة السلطان عبد الحميد على الاشتراك في مؤتمر الآستانة في عام ١٨٨٢ الذي تقرر فيه بحث المسألة المصرية مما أبعد الدولة العثمانية عن المشاركة في تحديد مستقبل مصر ، وترك مصيرها معلقاً في أيدي الدول الأوروبية (٢) .
يضاف إلى ذلك أنها ترددت في اتخاذ موقف ثابت تجاه كل من العرابيين والخدوي ، كما ترددت في إرسال قوات عسكرية إلى مصر بناء على طلب الخديو ، وتباطأت في اتخاذ موقف محدد من طلب الخديو المعونة من الانجليز ثم زادت الطين بله بإصدارها منشورا بعصيان عرابي مما قلب ميزان الحماس الشعبي ، وأضاع التأييد الإسلامي للثورة العرابية، وكان له أسوأ الأثر في النفوس وأدى إلى إيقاع الفرقة والانحلال في صفوف العرابيين ، وانصراف الناس عن تأييدهم مما أتاح لانجلترا فرصة احتلال مصر (٣) .

١١ - مسئولية الدولة العثمانية عن الاحتلال الفرنسي للجزائر :

تباطأت الدولة العثمانية في ترضية فرنسا عندما طلبت منها التدخل لتأييد داي الجزائر الذي أظهر عداً واضحا للفرنسيين بتحقيقه لقتل فرنسا ، ورفضه تقديم الترضية العلنية ، وكان يجب عليها الإسراع لحسم الموقف خصوصا وأن نذر الحرب كانت واضحة بين فرنسا والجزائر . ومع ذلك فأنها قررت عدم التدخل في القضية في

١- الشناوي : المرجع السابق ج٢ ص ٢٢٠ .

٢- الشناوي : المرجع السابق ج٤ ص ٢٢٧٥ .

٣- لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر بحثنا المعنون " موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية " والمنشور في العدد السادس والعشرون من المجلة التاريخية المصرية .

أول الأمر نظرا لأنها كانت منهمة في إخماد ثورة المورة القائمة ضدها^(١) . نتيجة لذلك انزدرت فرنسا بالجزائر ، وتمات باحتلالها في عام ١٨٣٠ م .

١٢ - عدم مسانرة العثمانين للتطورات التي حدثت في أوربا إبان عصر النهضة، وعزلهم للعالم العربي عن التطور العالمي الذي بدأ مع بداية العصور الحديثة وذلك عندما فرضوا ستارا حول العالم العربي بحجة حمايته من الغزو العسكري الأوربي. حقيقة لقد سمحت الدولة العثمانية بوجود تبادل تجارى بين العرب والأوربيين^(٢) ولكنها أبقت العالم العربي على حالته التي كانت موجودة قبل فتحها له . وفي الوقت الذي تطورت أوربا في مضمار النهضة تطورا كبيرا أسدلت الدولة العثمانية ستار الجمود حول البلدان العربية بهدف تعويق تقدمها ومثعها من الاقتراب من عصر النهضة الذي بدت آثاره واضحة في أوربا مما أدى إلى تخلف العالم العربي عن ركب هذه النهضة ، وإضعاف ثقته في نفسه .

كل هذه الأوضاع جعلت العالم العربي يعيش في حالة من الجمود في ظل الحكم العثماني جعلته يدخل إلى القرن العشرين وهو لم يتخلص بعد من حياة العصور الوسطى. وانتهى الأمر بظهور جماعة الاتحاد والترقى ، وسيطرتها على مقاليد أمور الدولة العثمانية ، وتعصبها للحركة الطورانية التي تستمد أساسها من التركيز على انتساب الأتراك إلى أصول طورانية والدعوة إلى بعث الجنس التركي وتمجيده ، وتخليصه من المؤثرات العربية والفارسية ، ومحاولة تنريك العرب وغيرهم من العناصر التابعة للعثمانيين بجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية في المدارس والمحاكم والداوين^(٣) ، مما أدى إلى نفور العرب ، وشعورهم برغبة الأتراك في صبغهم بالصبغة التركية .

ولما أنغيت السلطنة وجاء أتاتورك اتخذ من الاجراءات التي باعدت بين الدولة والإسلام عموما ، ومن هذه الاجراءات إلغاء الخلافة ، وإلغاء منصب شيخ الإسلام وحذف عبارة "إن دين الدولة التركية هو الإسلام" والمناداة بتركيا دولة علمانية^(٤) ، وإلغاء القانون الإسلامي وتبني قانون الأحوال الشخصية العلماني ، وإلغاء التقويم الهجري ، واستبدال العطلة الاسبوعية بيوم الأحد بدلا من الجمعة ، وإلغاء الحروف العربية التي كانت تكتب بها اللغة التركية واستبدالها بحروف لاتينية، ومنع الصلاة والتعبد في جامع أيا صوفيا ، وتحويله إلى متحف^(٥) .

-
- ١- أرجمت كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٢٧-١٨٤٧م - ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمي ، تونس ، الطبعة الثانية ص٢٤-٢٥ .
 - ٢- سيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥ ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨ ص٤٤٢ .
 - ٣- الشناوى : المرجع السابق ج٣ ص١٢٢٨ .
 - ٤- نفسه ج١ ص٨٥ .
 - ٥- للتفاصيل انظر على حسون: تاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ص٢٢٧-٣٠٠ .